المحاضرة الثانية
الأستاذ عمار قرايري

المقياس: مضمون الخطاب النثري القديم
1 ماستر أدب قديم

أنواع النثر الفني العربي في العصر الجاهلي

تناقل العرب أنواع النثر العربي الذي كانوا يسمعونه مشافهة ويحفظونه وخاصة ما كان ذا قيمة، وتوفر على أسباب البقاء والحفظ شكلا ومضمونا، ومن أنواعه: الأمثال، والحكم، والنثر المسجوع وهو ما أطلق عليه اسم سجع الكهان، والخطابة والوصايا والقصص.

1- الأمثـال:

المثل: قول محكم الصياغة، قليل اللفظ، موجز العبارة، بليغ التعبير، يوجز تجربة إنسانية عميقة، مضمرة ومختزلة بألفاظه، نتجت عن حادثة أو قصة قيل فيها المثل، ويضرب في الحوادث المشابهة لها، فهو فن أدبي نثري ذو أبعاد دلالية ومعنوية متعددة، انتشر على الألسن، له مورد وله مضرب.

أبدع معظم العرب في ضرب الأمثال في مختلف المواقف والأحداث، وذلك لحاجة الناس العملية إليها، فهي أصدق دليل عن الأمة وتفكيرها، وعاداتها وتقاليدها، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير.

ومن الأمثال العربية القديمة:

"**رب عجلة تهب ريثا** " -" **ادّرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل.** "**المرء يعجز لا محالة.**" "**لا جماعة لمن اختلف** " . " **لكل امرئ سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح، فإنه كفى بالمشرفية واعظا** " . " **أسرع العقوبات عقوبة البغي**".

ولكن أمثال العرب لم تأت على مثل هذه الدرجة من الرقي والانضباط الأسلوبي، مثل التي جاء بها أكثم بن صيفي، بل إن كثيرا من الأمثال الجاهلية تخلو من التفنن التصويري، وهذا لطبيعة الأمثال لأنها ترد على الألسنة عفوا وتأتي على ألسنة العامة غالبا، فلم يكن من الغريب أن يخرج بعضها على القواعد الصرفية والنحوية دون أن يعيبها ذلك مثل:

"**أعط القوس باريها**" (بتسكين الياء في باريها والأصل فتحها).

وبعض الأمثال يغلب عليها الغموض وقد تدل تركيبتها على معنى لا تؤدي إليه الكلمات بذاتها، ومن ذلك قول العرب: (**بعين ما أرينك**)؛ أي أسرع.

ولم يكن هذا النوع من الأمثال هو الوحيد بل هناك أمثال صدرت عن شعراء مبدعين وخطباء مرموقين فجاءت راقية الأسلوب متألقة بما فيها من جماليات الفن والتصوير مثل: **أيُّ الرجال المهذب،** فهذا المثل جزء من بيت للنابغة يضرب مثلا لاستحالة الكمال البشري.

والبيت:

ولست بمستبق أخا لا تلمُّه على شعث، أي الرجال المهذب؟

والأمثال ذات قالب ثابت البنية، إذ هو ذاته يستعمل في كل الأحوال، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام من حيث البناء:

أ- ذات قالب بسيط: **إنك لن تجني من الشوك العنب.**

ب- تأتي في قالب الصّنعة اللفظية: "**من عز بز**"، "**عش رجباً ترى عجبا**".

ج- تأتي في قالب منتهكا الترتيب النحوي: **الصّيفَ ضيعتِ اللبن.**

أما **أنواع المثل**، فهي إمّا حقيقية أو فرضية خيالية.

- **الحقيقية:** لها أصل، من حادثة واقعية، وقائلها معروف غالبا .

- **الفرضية:** ما كانت من تخيل أديب ووضعها عل لسان طائر أو حيوان أو جماد أو نبات أو ما شاكل ذلك، والفرضية تساعد على النقد والتهكم ووسيلة ناجحة للوعظ والتهذيب.

2- الـحكم:

الحكمة: قول موجز مشهور صائب الفكرة، رائع التعبير، يتضمن معنى مسلماً به، يهدف عادة إلى الخير والصواب، به تجربة إنسانية عميقة.

من أسباب انتشارها:

اعتماد العرب على التجارة، واستخلاص العظة من الحوادث، ونفاذ البصيرة والتمكن من ناصية البلاغة.

الفرق بين الحكمة والمثل :

الفرق بين الحكمة والمثل يتمثل في أن الحكمة قول موجز جميل، يتضمن حكما صحيحا مسلّما به نابعا من الواقع ومعاناة التجارب في الحياة، كقولهم: "**أول الشجرة النواة**"، و"**آخر الدواء الكي**" و"**إنك لا تجني من الشوك العنب**" أما المثل فهو – في أصله – قول يقترن بقصة أدت إليه، ثم يدخل في نطاق الأمثال حين يستشهد به في مقامات مماثلة، وفي حالات مشابهة للحالة الأولى التي ورد ذلك القول فيها، كما وتختلف الحكمة عن المثل في أنها تصدر غالبا عن طائفة خاصة من الناس لها خبرتها وتجاربها وثقافتها، بعكس المثل الذي يصدر عن عامة الناس.

3– النثر المسجوع أو سجع الكهان:

تعريفه: " لون فني يعمد إلى ترديد قطع نثرية قصيرة، مسجّعة ومتتالية، تعتمد في تكوينها على الوزن الإيقاعي أو اللفظي، وقوة المعنى"، ومن مميزاته أنه يأتي:

– محكم البناء، جزل الأسلوب، شديد الأسر، ضخم المظهر، ذو روعة في الأداء، وقوة في البيان، ونضارة في البلاغة.

– لغته تمتاز: بشدة التعقيد، كثرة الصنعة، كثرة الزخارف في أصواتها وإيقاعها. لذلك فالنثر المسجوع يأتي في مرحلة النضج.

يقول المستشرق بلاشير في كتابه (تاريخ الأدب العربي): "أنه من الممكن أن يصعد السجع إلى أكثر الآثار الأدبية عند العرب إيغالا في القدم، وبالتالي إلى ماضي أكثر غموضا". فهناك من يؤكد بأن المسجوع كان المرحلة الأولى التي عبرها النثر إلى الشعر عند العرب.

يقول ابن رشيق: "وكان كلام العرب كله منثوراً، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم الأخلاق وطيب أعراقها، وصنعوا أعاريض جعلوها موازين للكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا".

وظاهرة السجع المبالغ فيه في النثر الجاهلي، قد ارتبطت بطقوس مشربة بالسحر والكُهون ومعتقدات الجدود، لذلك يكثر في رأيه ترديد القطع النثرية القصيرة المسجعة أثناء الحج في الجاهلية، وحول مواكب الجنائز، مثل قول أحدهم: **من الملك الأشهب، الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها الربرب، لا يعلق رأسه الصخب، هذا دمه يشحب، وهذا غدا أول من يسلب.**"

ويتصف هذا النثر إجمالا باستعمال وحدات إيقاعية قصيرة تتراوح بين أربعة وثمانية مقاطع لفظية تنتهي بفاصلة أو قافية، ودون لزوم التساوي بين الجمل أو المقاطع.

4- الخطابة:

تعريفها: هي فن مخاطبة الجماهير، بغية الإقناع والإمتاع، بكلام بليغ. فهي قطعة من النثر الرفيع، قد تطول أو تقصر حسب الحاجة لها.

وهي من أقدم فنون النثر، لأنها تعتمد على المشافهة، لأنها فن مخاطبة الجمهور بأسلوب يعتمد على الاستمالة وعلى إثارة عواطف السامعين، وجذب انتباههم وتحريك مشاعرهم، وذلك يقتضي من الخطيب تنوع الأسلوب، وجودة الإلقاء وتحسين الصوت ونطق الإشارة.

أما الإقناع فيقوم على مخاطبة العقل، وذلك يقتضي من الخطيب ضرب الأمثلة وتقديم الأدلة والبراهين التي تقنع السامعين.

- **أقسام أو أجزاء الخطبة:** للخطبة أجزاء ثلاثة هي (المقدمة – والموضوع – والخاتمة).

- **خصائص أسلوب الخطبة:**

– قصر الجمل والفقرات.

– جودة العبارة والمعاني.

– شدة الإقناع والتأثير.

– السهولة ووضوح الفكرة.

– جمال التعبير وسلامة اللفظ.

– التنويع في الأسلوب ما بين الإنشائي والخبري.

– قلة الصور البيانية.

– الإكثار من السجع غير المتكلف.

- **أنواع الخطابة:** تختلف باختلاف الموضوع والمضمون، منها:

الدينية: التي تعمد إلى الوعظ والإرشاد والتذكير والتفكير.

السياسية: التي تستعمل لخدمة أغراض الدولة أو القبيلة.

الاجتماعية: التي تعالج قضايا المجتمع الداخلية، والعالقة منها من أمور الناس، كالزواج....

الحربية: التي تستعمل بغية إثارة الحماسة وتأجيج النفوس، وشد العزائم.

القضائية: التي تقتضي الفصل والحكم بين أمور الناس، يستعملها عادة الحاكم أو القاضي.

ومن أشهر خطباء الجاهلية (قس بن ساعدة الإيادي) وهو أول من قال في خطبته: (أما بعد) وتسمي (فصل الخطاب)، لأنها تفصل المقدمة عن الموضوع.

5- الوصايا:

الوصية: هي من ألوان النثر التي عرفها العرب في الجاهلية، وهي قول حكيم صادر عن مجرب خبير يوجه إلى من يحب لينتفع به، أو من هو أقل منه تجربة.

أجزاء الوصية:

المقدمة: وفيها تمهيد وتهيئة لقبولها.

الموضوع: وفيه عرض للأفكار في وضوح واقناع هادئ.

الخاتمة: وفيها إجمال موجز لهدف الوصية.

خصائص أسلوب الوصية:

- قصر الجمل والفقرات.
- الإطناب بالتكرار والترادف والتعليل.
- تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء.
- الإقناع بترتيب الأفكار وتفصيلها وبيان أسبابها.
- الإيقاع الموسيقي، إذ يغلب عليها السجع، لتأثيره الموسيقي.
- اشتمالها على كثير من الحكم.
- سهولة اللفظ، ووضوح الفكرة.

6- القصص:

تعريف: هي عبارة عن مجموعة من الأحداث تتناول حادثة وواقعة واحدة، أو عدة وقائع، تتعلق بشخصيات إنسانية منها وأخرى مختلفة –غير إنسانية–،

لها قسمان حسب طبيعة أحداثها، وهما؛ حقيقية واقعية وخيالة خرافية.

تتميز القصة، بأنها تصور فترة كاملة من حياة خاصة، أو مجموعة من الحيوات، فهي تعمد إلى عرض سلسلة من الأحداث الهامة وفقاً لترتيب معين. بينما نجد الأقصوصة تتناول قطاعاً أو موقفاً من الحياة، فهي تعمد إلى إبراز صورة متألقة واضحة المعالم بينة القسمات، تؤدي بدورها لإبراز فكرة معينة.

القاص:

هو السارد للأحداث، أو هو خالق مبدع، تزدحم في رأسه أحداث وشخصيات، ينفخ فيها الروح لتتحدث بنعمة الحياة. مهمته أن يحمل القارئ إلى حياة القصة، ويتيح له الاندماج التام في أحداثها، ويحمله على الاعتراف بصدق التفاعل الذي يحدث ما بينهما، ويعود الأمر إلى قدرة القاص على التجسيد والإقناع.

كانت مادة القصص أو مواضيعه؛ متعددة ومتنوعة، وذلك بغية التسلية والمتعة، أو حتى الوعظ والإرشاد، أو شحذ الهمم، فكان بعضها يدور حول:

- الفروسية، تاريخ القبيلة، بطولات الأمجاد؛ مثل حرب البسوس، وداحس والغبراء.
- قصص من وقائع الحياة الاجتماعية اليومية بغية الإمتاع والتسلية.
- القصص الخرافي، الأساطير، مثل قصص الغول ومنازلته في الصحراء، الجان...

فكان العرب يستمد قصصهم ومواضيعهم من حياتهم، ومواقفهم، ونزالاتهم، وموروثهم الثقافي مما تناقل إليهم عبر الرواية من الأسلاف، لكن هناك البعض مما استمده من جيرانهم؛ كالأحباش، والروم، والفرس، والهنود.